

المحطة قبل الأخيرة

دولة البحرين

■ مستشفى الأمراض العصبية والنفسية - المنامة

وصلت إلى البحرين بأسرتي ووجدت في استقبالي موظفي العلاقات العامة وبعض أطباء قسم الطب النفسي في مستشفى البحرين وذهبنا مباشرة إلى السكن الخاص في منطقة (الجفير) وهي من الأحياء السكنية الراقية وقد لاحظ أطفالي رطوبة الجو الخائق خاصة للقادم من لندن ولولا التكيف لكان الأمر مختلفاً بالنسبة لهم، أما بالنسبة لي فقد سبق لي زيارة البحرين واعرف طبيعة جو الخليج.

دخلنا ووجدنا البيت مهياً من كل شيء حتى بعض الفواكه والمشروبات وغمرنا هذا الكرم الحاتمي ودفء الترحاب وكانت هذه ضربة البداية لفترة حافلة بالحب والمودة من شعب رقيق الحاشية دمث الطباع.

لم تكن هنالك جالية سودانية في البحرين سوى بعض الأسر الصغيرة.. الأخوة كمال وعبد بشاره أصحاب أعمال والأخ الطيب العبيد مدير شركة البيسي كولا شقيق الصديق الدكتور حامد العبيد الصيدلي المعروف في الخرطوم وبعض الاخوة العاملين في القصور كانت هذه كل الجالية. ولكن أهل البحرين جميعاً كانوا الجالية الأم ففي بضعة شهور صرت أحد أفراد العائلة الكبيرة فدخلت معظم البيوت واغلب القصور وشاركت في الصحافة في صحيفة (الايام) وفي الاذاعة في برنامج (صحتك) والتلفزيون في برنامج (العيادة النفسية) هذا كله في بلد يتمتع بأعلى معدلات التعليم في منطقة الخليج العربي.

■ العيادة النفسية للأطفال والمراهقين - مستشفى السلمانية

لاحظت أن نسبة الأطفال تمثل شريحة كبيرة في المجتمع والصحة المدرسية تمثل احد الاهتمامات الكبيرة في تخطيط الوزارة وهي حقاً أحد الانجازات المتميزة في الخدمات الصحية في دول الخليج العربي. كما ذكر سابقاً لقد عملت مع دكتور كولفن في جامعة نيوكاسل والدكتور فيليب باركر في جامعة نوتنجهام وهما من المراجع العلمي في مجال الطب النفسي للأطفال فكتبت اليهما اطلب المشورة في انشاء عيادة نفسية للأطفال والمراهقين فارسلنا لي التصور وما كان علي إلا أن أرتب تفاصيله بما يتماشى مع البيئة والثقافة واعيد صياغته واقدم البروتوكول إلى معالي وزير الصحة الدكتور علي فخره والذي لم يكن طبيياً متميزاً فقط وإنما مفكراً عربياً ذا نزعة قومية اثرت منتديات الفكر الخليجي ولا تزال.

رحب الوزير بالفكرة وابدأ إعجابه ومساندته للمشروع ودعمه له واهتمامه به وتخصيص ميزانيه له وكادر متفرغ ولما كانت الوصمة الاجتماعية التي تصاحب المرض النفسي تلقي بظلالها على المشروع اقترح الوزير أن يكون الدوام في العصر حيث يكون الطفل خارج المدرسة والاسرة غير متحسسة من زيارة المستشفى ونفس الكادر متفرغ بعد ساعات العمل الرسمي. وكان هذا يعني فترة عمل اضافية على ساعات العمل الرسمية اشبه بالعيادة الخاصة بكل ما يترتب على ذلك من النفقات للاجر الاضافي فأصبح للمشروع بند في الميزانية وحصلت على راتب العمل الخاص والذي كان وقفاً على أبناء البحرين وقد وجد المشروع اصداء واسعة في الصحافة المحلية العربية والانجليزية. وقد كتب عنه في كتاب (تاريخ الطب النفسي في البحرين) تأليف الزملاء الدكتور محمد خليل الحداد والدكتور علي راشد العوفي وهم من أساتذة الطب النفسي في مملكة البحرين اليوم.

بعد بضعة أشهر وصلت دعوة لدولة البحرين للاشتراك في المؤتمر الأول بعنوان (الشباب والصحة النفسية) والذي عقد في مقر جامعة الدول العربية في القاهرة في ديسمبر ١٩٧٥، وقد طلب مني سعادة الوكيل الدكتور ابراهيم يعقوب تمثيل الدولة رسمياً في هذا المؤتمر وكان يرأس المؤتمر من مصر أستاذ الجيل الراحل الدكتور جمال ماضي أبو العزائم والدكتور عمر شاهين والدكتور أسامة الراضي من السعودية والدكتور محمد فخر الإسلام من قطر وقد جمع المؤتمر معظم الاطباء النفسانيين العرب مع معالي الدكتور محمد لطفي الخولي مندوب جامعة الدول العربية.

عدت إلى البحرين لأشرح لسعادة الوكيل توصيات المؤتمر فإذا به في نهاية المقابلة ينقل لي نبأ برقية وصلت للوزارة من الخرطوم تطلب عدم تعيين أي طبيب من الأطباء السودانيين حسب الاتفاق مع دول الخليج وذلك للهجرة الكبيرة للكفاءات السودانية في الأونة الأخيرة وعلمت أن الرسالة مع معالي الوزير والذي يرغب في مقابلتي وذهبت إلى مكتب الوزير ورحب بي وسألني عن قرارات المؤتمر والدور المنوط بالبحرين القيام به في سياق هذه التوصيات وللحظة ظننت أنه قد عرَّ عليه مفاتيحي في الموضوع ولكنه كان برجماتياً في رؤيته للاحداث فواصل قائلاً لي: ربما حدثك الدكتور ابراهيم يعقوب عن رسالة وزارة الصحة بالسودان فما رأيك؟ قلت له إن السودان مليء بالكفاءات ولا أعتقد انني أحدثت عجزاً يستوجب عودتي وأنا الآن قادم من السودان وأرغب

في الاستمرار في عملي هنا والأمر متروك لتقديركم فقال لي ان أدب الحوار يقتضي أن نرد عليهم وسوف اكتب رسالة شخصية إلى معالي وزير الصحة بالسودان اطلب منه السماح لك بالاستمرار معنا معاراً أو متعاقداً شخصياً حتى عودة الكوادر البحرينية والتي يجري تأهيلها بالخارج وقلت له لأظن أن الأمر صادر من معالي الوزير فقال لي إنه يعلم ذلك ولكنه يريد اختصار الطريق خاصة وأنه يعرف البروفيسور النذير دفع الله وزير الصحة آنذاك وعندما رجعت الى المنزل اخبرتني زوجتي انها اتصلت بالخرطوم فعلمت أن الدكتور أبوالقاسم سعد والذي كان يعمل في القسم بود مدني قد اتصل بهم يسأل عن مكاني وعنواني وأغلب الظن انه كان يحاول الاستئناس برأيي في الهجرة ولم يكن طرفاً في المعادلة الصعبة حيث ألتحق بي مهاجراً إلى دولة الإمارات بعد وقت قصير بعد يومين كتب معالي الوزير الرسالة للخرطوم وأعطاني نسخة منها ولم يتحرك الموضوع بعد ذلك.

في اثناء هذه الفترة كان برنامجي التلفزيوني الاسبوعي (العيادة النفسية) مستمراً في تلفزيون البحرين وما كنت أعلم أن البث يطال الدول المجاورة خاصة في أبوظبي وكانت تملك هنالك كادراً اعلامياً كاملاً من السودان بقيادة المايسترو الموهوب والصدوق المحبوب الاستاذ علي شمو والذي كان يشغل منصب وكيل وزارة الإعلام والثقافة ومدير عام التلفزيون بقدر ما ساعدت بمعرفة هذه الحقيقة المشرفة للسودان بقدر ما عجبت من التناقضات في بلد يعير رجلاً في قامة وهامة الاعلامي اللامع والنجم الساطع الاستاذ علي شمو وتتقطع انفاسه من اللهات جرياً وراء طبيب مبتدئ تملك العشرات من امثاله ممن يتحينون فرصة الانفلات من قبضة الفك المفترس ولله في خلقه شئون.

انعقد في المنامة عاصمة البحرين المؤتمر العالمي لمكافحة المخدرات والمسكرات وكان من بين المشاركين جمهورية السودان وحضر ممثلاً عنها الدكتور طه بعشر والدكتور حسبو سليمان والدكتور مالك بدري والدكتور حاكم عبدالرحمن مدير المختبر الجنائي بإدارة مكافحة المخدرات بوزارة الداخلية.

وقد اقامت الوزارة حفل استقبال للوفود الزائرة وبعد نهاية الفعاليات الرسمية للمؤتمر اقامت حفل عشاء للوفد السوداني في منزلي بحي الجفير خاصة وان الدكتور حسبو كان يصطحب معه عقيلته السيدة ليلي زكي الاخصائية الاجتماعية بالقسم والتي كانت تتسوق مع زوجتي طوال فترة انعقاد المؤتمر، وقد دعوت معهم اخوان الصفا من ثالث الجالية وفي اثناء العشاء أخذني

الدكتور حسبو على البلكونة المطلة على الشارع وحدثني عن ثناء المسؤولين في البحرين على جهودي العلمية وعلاقتي الطبية معهم وهنأني على هذا التقدير وشكرته على هذا الشعور، ولم أذكر له شيئاً حول موضوع البرقية وكفى الله المؤمنين شر القتال خاصة وأنا المضيف. تمنيت له سفرأ سعيداً ورحلة آمنة وهنا طلبت مني السيدة ليلي زكي الاتصال بالأخ حمدي بدرالدين المذيع المشهور في تلفزيون أبوظبي وقد فعلت وأخبرتني بأنهم هناك يحاولون إلحاقهم بهم في أبوظبي.

بعد فترة اتصل بي صديق الطرفين الاستاذ علي شمو يسألني ان كنت ارغب في العمل في أبوظبي وهي في بداية المشوار والفرصة مواتية والجالية اكبر عدداً وذكر لي على سبيل المثال في التلفزيون كل اعضاء الفريق الفني والذي كان يقدم معي برنامج (أضواء على النفس البشرية) في التلفزيون السوداني وهم الاخ عوض عيد والاخ أحمد أحيمر والاخ عبدالماجد مسعود والاخ بكري حمد وآخرون.

وكانت الاجواء بين أبوظبي والبحرين مفتوحة والسفر ميسور يكفي أن تاخذ جواز سفرك إلى المطار وتركب أول طائرة إلى أبوظبي تتناول طعام الافطار ثم تعود في نهاية اليوم إلى البحرين واستمرت هذه الرحلات المكوكية لفترة طويلة بحثاً عن الوضع الأمثل.

كان قد باشر الدكتور جان آل صفر أول طبيب بحريني متخصص في الطب النفسي من ايرلندا مهامه في المستشفى وفي عيادته الخاصة وكان بحكم وضعه متفرغاً تماماً للعمل الخاص ليس فقط في المستشفى ولكن في المستشفيات الخاصة الاخرى وبدأت بعض الكوادر تتضم للعمل في حقل الصحة النفسية ليست من الاطباء فقط وإنما في التمريض والتخصصات المساندة.

أرسل لي الاخ علي شمو عقد عمل في أبوظبي تحديداً وحملت العقد إلى الدكتور جان وقال لي: (لا شك أن العقد افضل مما عندنا ولكن العمل هنا افضل مما عندهم ولكن لا أعتقد أن معالي الوزير سوف يقبل هذا الخبر دعنا نرى) لقد كان الدكتور جان صهراً لمعالي الوزير والذي كان متمسكاً ببقائني وعرض على تحسين العقد ولم يكن هذا مربط الفرس ووضحت القراءة المتأنية لهذه الخطوة صحتها فيما بعد وقد ودعت البحرين في قصيدة (بطاقة شوق إلى البحرين) في ديوان (نقوش على البحر) ص ٤٥٠ وقصيدة (ثلاث ليال في رحاب الجمال) في ديوان (اشباح المينة) ص ٨٧.